بقلم : عادل سمارة

ملامح الهجرات الفلسطينية

من نهايات القرن التاسع عشر الـــى أربعينات القرن العصرين

الاغتراب « او الهجرة الى الخارج » بشكل عام هو انفصال الانسان عن وضعه وواقعه الطبيعيين واضطراره للتحول الى واقع جديد وربما التعود على هذا الواقع الاخر ، « فالانفصال الذى يحصل بين العامل وبين انتاجه هو ظاهرة اغتراب » وكذلك الانفصال بين المواطن وبين بلده .

والاغتراب ، اذن ، فى فلسطين نعنى به هنا ابتعاد الانسان الفلسطينى عن ارضه التى يتواجد بينه وبينها ترابط شديد الصلة وعميق الجذور ، بناء على كون هذا الترابط هو الاساس المادى لحياته .

وسنعالج طبيعة هذا الاغتراب ، واسبابه ومفاعيله ايضا على المجتمع الفلسطينى .

ولعل من المناسب الاشارة الى بعض الاوليات فيما يتعلق بفلسطين كبلد ، فهى جزء من الشرق العربى فى اسيا ، وتبلغ مساحتها ٢٦٢٣٠ كم مربع . ويتكون سطحها من ساحل على البحر فسلسلتين جبليتين بينهما سهل يدعى الاغوار ، ثم منطقة فى الجنوب تبدا طبيعتها بالتحول الى كثبان من الرمل الى ان تغدو صحراء فعلية ، لكنها بالاجمال منطقة خصبة زراعيا بغض النظر عن مدى استغلال ارضها .

ان عودة قصيرة الى الوراء تبين لنا طبيعة نظام الحكم الذى كانت تخضع له فلسطين فى العهد التركى ، والذى ابانه كان الفلسطينيون يعانون نماذج اضطهاد عديدة . اهمها وعلى راسها اضطهاد السلطة العثمانية الرجعية والمستبدة ، ثم اضطهاد ادوات السلطة هذه من الامراء ورجال العشائر الذين كانوا يضربون دائما بحراب السلطة ، وعليه فقد كان هناك اغتراب ايضا فيما يتعلق بمجهود الفلاح ، فهو وان كان يعيش فى ارضه الا انه كان محروما من الكثير من خيراتها الناتجة عن تفاعل جهده مع عطاء الارض .

ولم يتغير الامر فى عهد الانتداب البريطانى ، حيث بقيت البلد على حالها ، الا ان علاقة الفلاح الفلسطينى بارضه كانت على جانب كبير من الاصالة والعمق ، وهذه العلاقة ناجمة عن طبيعة الانتاج القائم فيها ، اى الانتاج الزراعى ، حيث كانت اغلبية السكان يعتمدون على الزراعة طبقا لاحصاءات الانتداب البريطانى عام(١) ١٩٢٣ م .

ومن حيث التركيبة السكانية فانه حتى اواخر سنى الاحتلال البريطانى كانت فلسطين بلدا ذا اديان اساسية ثلاثة الاسلام والمسيحية واليهودية ، وكان لكل منها حق ممارسة الشعائر الدينية ، وحق المواطنة بالتساوى علاوة على العلاقات الجيدة التى كانت قائمة بينهم .

يقول بن هلبرن (٢) : كان اليهود يتنقلون بحرية بين فلسطين وبقية الاجزاء الاخرى

(١) Colonial Office, "Report on Immigration, Land Settlement and Development" London 1930.

(٢) بن هلبرين : فكرة الدولة اليهودية كامبردج ١٩٦١ ص ١٠٥

للامبراطورية الشاسعة ، ومن شمال افريقيا الى بلاد البلقان ، تماما مثل المسيحيين والمسلمين ، .. ولكن بعض المهاجرين ذهبوا الى القسطنطينية او دمشق او القاهرة وحيث كانت الظروف الاقتصادية والسياسية مناسبة لهم اكثر منها فى فلسطين .

تاريخ الاغتراب الفلسطينى : —

ترتبط فلسطين فى معظم مجالات الحياة فيها بسورية الكبرى ولذلك فقد بدات حركة الهجرة فيها مع بداية هذه الحركة فى سورية ايضا ، وتعود بداية هذه الحركة الى مابين ١٨٧٠ — ١٨٧٤ م . ويرد ذلك حسن حدة قائلا : « مع وفاة يوسف كرم فى منفاه بايطاليا ، حيث هام رجاله وهاجروا الى البرازيل واسبانيا » (١) والواقع ان رد هذه الحركة الى اساس منفرد او جزئى كهذا ، لا يقدم التعليل الكافى ، ولكن يمكن ان يكون احد الاسباب المؤثرة او الدافعة الى الاغتراب .

وعلى وجه الاجمال فقد بدات حركة الاغتراب الفلسطينى هذه مع منتصف القرن التاسع عشر الى العقود الثلاثة من القرن العشرين متاثرة اكثر باواخر فترة الحكم التركى ذات الطابع الارهابى ، وكذلك بارهاصات الحرب العالمية الاولى .

ويؤرخ حسن حدة عملية الهجرة الى الولايات المتحدة بعام ١٨٧٨ ، اما الهجرة الى هناك بغزارة فقد امتدت ما بين ١٨٩٩ — ١٩٢٤ حيث تراوح عدد المهاجرين العرب ما بين ١٢٠٧ كحد ادنى عام ١٩٢٣ وحد اعلى ٩٢١٠ فى عام ١٩١٣ . والسبب فى قلة عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة عائد الى ان الحكومة الامريكية وضعت سقفا للعدد المسموح به .

يقول حسن حدة فى عام ١٨٥١ هاجر حنا خليل مرقص من بيت لحم الى امريكا الشمالية والبرازيل ، وعام ١٨٧٠ هاجر شقيقان من اسرة زخريا من بيت لحم الى البرازيل ايضا .

ويورد سعيد حمادة (٢) الاحصائية التالية حول عدد الفلسطينيين الذين يعيشون فى الخارج فى بداية الانتداب البريطانى .

عدد الفلسطينيين المغتربين حتى ٣ اكتوبر ١٩٢٢ : —

القطر	المسلمين		المسيحيين	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث
استراليا	——	——	١٩	١٣
الجزائر	١	——	——	——
مصر	٣٦٢	٢٥٢	١٥٢	٩٠
فرنسا	٢	——	٢٢	١٢
المانيا	٢	——	٣٨	٢٦
مراكش	١	——	٤	——
بولندا	١	——	——	——
روسيا	١	——	٤	——
سوريا	٤٦٠	٢٧١	٨٦	٣٦
شرق الاردن	١٠٤٦	٧١٧	٦١	٣٤

(١) تاريخ المغتربين العرب ، حسن حدة ص ١٧

(٢) الاقتصاد فى فلسطين — الجامعة الامريكية ص ٣٧